أوسُ بنُ غَلْفاءَ حياته وما وصلَ من شعرِه

م. د مروان جميل نعمة/ كلية التربية/ جامعة القادسية

marwanjameel1976@gmail.com

تاريخ الطلب: ٢٠٢٣/٤/١٣

تاريخ القبول: ٢٠٢٣/٥/١٧

- **ملخص البحث:**

يحاول هذا البحث الموجز أن يسلط الضوء على سيرة شاعر مقلٍّ ارتبط ذكره بيوم مشهور من أيام العرب في الجاهلية. أمّا الشاعر فهو أوسُ بنُ غَلْفاءَ الهُجيميّ التميميّ، وأمّا اليوم فهو يوم ذي نجب.

ولمّا كان موضوع البحث متصلاً بشاعر مغمورٍ، ارتبط ذكره بحادثة تاريخية، فإن منهج البحث يقتضي أن يقف البحث عند الشاعر معرّفاً به، وكاشفاً المصادر التي ترجمت له، وعرّفت به، ومن ثمّ الإلمام بتلك الحادثة التاريخية، والتعرف على مجرياتها وأحداثها ومكان الشاعر فيها. قبل التوقف عند شعر الشاعر، وهو نزرٌ يسيرٌ، لكنه -على قلّته- كشف جانباً مهماً من حياة الشاعر، وأسلوب تفكيره، ونظرته إلى الحياة والقبيلة من حوله.

وعلى الرغم من كثرة كتب المختارات الشعرية التي احتفلت بذكر القصيدة كلها أو بعضها مثل المفضليات والأصمعيات وغيرها من مصادر الأدب العربي مثل طبقات فحول الشعراء لابن سلام (٢٣١هـ) والحيوان للجاحظ (٢٥٥هـ) والشعر والشعراء لابن قتيبة (٢٧٦هـ)

والكامل للمبرد (٢٨٥هـ). فضلاً عن المصادر اللغوية التي ذكرت بعض الشواهد منها، وهو ما قد يكون مسوغاً لوفرة المصادر في هذا البحث الموجز. فإنها جاءت متفاوتة في الرواية والتسلسل. وهو ما سعى هذا البحث إلى كشفه، ومحاولة توثيقه.

-Abstract :

This brief research attempts to shed light on the biography of an underrated poet whose mention was linked to a famous day in the days of pre-Islamic Arabs. As for the poet, he is Aws bin Ghalafah Al-Hujaimi Al-Tamimi, and today is the day of Dhul-Najb .

Since the subject of the research is related to an unknown poet, whose mention was linked to a historical event, the research methodology requires that the research focus on the poet, introducing him, and shedding light on the sources that translated and introduced him, and then becoming familiar with that historical event, and learning about its course, events, and the poet's place in it. Before stopping at the poet's poetry, which is a small detail, but - although it is few - it reveals an important aspect of the poet's life, his way of thinking, and his view of life and the tribe around him .

Despite the large number of poetry anthology books that celebrated the mention of all or some of the poem, such as Al-Mufadliyyat, Al-Asma'iyat, and other sources of Arabic literature, such as Tabaqat Fahl al-Shu'ara' by Ibn Salam, Al-Hay'am by Al-Jahiz (255 AH), Al-Sha'ar wa Al-Shu'ara' by Ibn Qutaybah (276 AH), and Al-Kamil by Al-Mubarrad (285 AH). In addition to the linguistic sources, some evidence of which was mentioned, which may be a justification for the abundance of sources in

this brief research. However, they differed in narration and sequence. This is what this research sought to uncover and attempt to document.

- **المقدمة**

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين محمّد وعلى آله الطاهرين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أما بعد:

فقد كانت أيام العرب في الجاهلية مصدراً خصباً من مصادر الشعر العربي ما قبل الإسلام، ومنجماً زاخراً رفد ذلك الشعر بالحياة والأحداث والمواقف والشخصيات، في مرحلة تعدّ من أزهى مراحل الأدب العربي، وأوثقها صلة بطرائق العرب، وأساليبهم في القول، وأكثرها قرباً إلى حياة العربي في مراحلها المختلفة، وهي مظاهر تجلت بوضوح في الشعر العربي آنذاك، إذ كانت تلك الأيام مستودعاً لذلك الشعر، مع ما رصده من قيم وسجله من أغراض، ولا سيما في الفخر والحماسة والرثاء والهجاء، وهي أوثق الأغراض الشعرية صلةً بتلك الأيام، فبينما كان الفرسان يقاتلون بسيوفهم، ويدافعون عن قيمهم وأعرافهم القبلية، كان الشعراء -من خلفهم- يدافعون عن تلك الأعراف بقصائدهم، ويطلقون العنان لألسنتهم، ويرثون بهذا الشعر قتلاهم، وهو ما يبدو واضحاً في شعر الجيل الأول من شعراء الجاهلية ممن تأثروا بتلك الأيام، أو أثرت تلك الأيام في شعرهم، وليس الأعشى وعنترة بن شداد، والمهلهل بن ربيعة، وحسان بن ثابت ببعيدين عن هذا الأثر والتأثير.

وإذا كانت تلك الأيام-بحكم سيرورتها التاريخية- قد أنصفت بعض الشعراء، فاشتهروا إما لمشاركتهم الفعلية، أو لإنشادهم الشعر فيها، فإنها غيّبت بعضهم، فامتدت إليهم يد النسيان، وأصابهم الإهمال والإندثار، ولم يحيي ذكرهم إلّا بعض المحدثين، ممن أخذوا على أنفسهم دراسة تلك الأيام برؤية جديدة، وكشف النقاب عن بعض شخوصها، وتسليط الضوء على

قصائدهم أو مقطوعاتهم الشعرية، وهو ما عرف في الأدبيات المعاصرة بـ (شعر الشعراء المقلين أو المجهولين). ومما يحسب لهؤلاء المحدثين-ومن بينهم الدكتور يحيى الجبوري والدكتور عادل البياتي والدكتور نوري حمودي القيسي والدكتور محمود عبد الله الجادر- أنّهم فتحوا الباب-ليس لدراسة ما أُهمل من شعر تلك الحقبة التاريخية، وما إنماز به من خصائص فحسب- بل إنهم فتحوا الباب، كذلك، لمراجعة جادة لتلك الأيام، التي لحقها الغموض أو الإضطراب، سواء أكان على مستوى الأحداث أم الشخوص أم الشعر نفسه. ويبدو أن تلك المراجعة كانت أثراً للحجر الذي ألقاه الأستاذ طه حسين في مياه التراث العربي، ابان القرن الماضي، فحرّك تلك المياه الراكدة، وكشف النقاب عن كثير من مشكلات الشعر العربي قبل الإسلام.

وعلى ضوء من هذه الإشارة جاء هذا البحث الموجز؛ ليسلط الضوء على سيرة شاعر ارتبط ذكره بيوم مشهور من أيام العرب في الجاهلية. أمّا الشاعر فهو أوسُ بنُ غَلْفاءَ الهُجيميّ التميميّ، وأمّا اليوم فهو يوم ذي نجب.

ولمّا كان موضوع البحث متصلاً بشاعر مغمور، ارتبط ذكره بحادثة تاريخية فإن منهج البحث يقتضي-فيما يقتضي- أن يقف البحث عند الشاعر معرّفاً به، مُسلطاً الضوء على المصادر التي ترجمت له وعرّفت به، ومن ثمّ الإلمام بتلك الحادثة التاريخية، والتعرف على مجرياتها وأحداثها ومكان الشاعر فيها. قبل التوقف عند شعر الشاعر، وهو نزرٌ يسيرٌ، لم يتجاوز إحدى وعشرين بيتاً، لكنه -على قلّته- كشف جانباً مهماً من حياة الشاعر، وأسلوب تفكيره، ونظرته إلى الحياة والقبيلة من حوله، وهو ما حَمَلَ ناقداً فذّاً مثل ابن سلام الجمحي أن يُلحقه بالطبقة الثامنة من الشعراء الجاهليين. مكتفياً بهذا الإلحاق فحسب، من دون تعريف بالشاعر، أو ذكر طرف من

أخباره، إذ اكتفى بذكر أربعة أبيات فقط من قصيدته، التي أشرنا إليها، وهو ما ستقوم الوقفة التحليلية عند القصيدة ببيانه وتوضيحه.

ولعلنا لن نستبق القول في هذه المقدمة إن قلنا أنّ شخصية هذا الشاعر قد ظهرت بوضوح في هذه القصيدة التي ذكرتها الكثير من كتب المختارات الشعرية مثل المفضليات والأصمعيات وغيرها من مصادر الأدب العربي مثل طبقات فحول الشعراء لابن سلام والحيوان للجاحظ والشعر والشعراء لابن قتيبة والكامل للمبرد فضلاً عن المصادر اللغوية التي ذكرت بعض الشواهد من القصيدة، وهو ما قد يكون مسوغاً لوفرة المصادر في هذا البحث الموجز. علاوةً على الرغبة في التوثيق، ومعرفة مقدار التفاوت في رواية القصيدة وتسلسل أبياتها. والله من وراء القصد. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

- **اسمُهُ**

ارتبطت أسماء الشعراء الجاهليين بوقائع تاريخية معينة غابت بعض ملامحها العامة، فأصاب تلك الأسماء ما أصاب شعر تلك الحقبة من شكٍّ وإضطراب في النسبة والموضوع نفسه، وهو ما تسرب إلى أسماء الشعراء وكناهم، فتحيّر المؤرخون في نسبة كثير من الشعراء، فضلاً على تحديد أسمائهم وولاداتهم ووفياتهم على وجه التثبت، وهو ما دفع بعضهم إلى الإحجام عن ذكر تلك الأسماء تامة، وهو ما وجدناه جلياً عند صاحب المفضليات الذي اكتفى بذكر قصيدة شاعرنا أوس بن غلفاء، مقتصراً على القول: أنّه من بني الهجيم بن عمرو بن تميم، وأنّه كان شاعراً جاهلياً فحسب. مسوغاً ذلك بأن من سبقه لم يرفعوا نسبه، ولم يذكروا أي شيء عن أخباره [١] لكن جهل المفضّل الضّبي (١٦٨هـ) بنسب الشاعر أو الترجمة له، لم يمنع ابن قتيبة من التعريف بالشاعر وذكر طرف من أخباره في كتابه الشعر والشعراء، لكن دون أن يعرض لقصيدته التي ذكرها المفضل من قبله ! إذ قال أنّه: أوس بن غلفاء بن عمرو من بني هجيم من تميم ويشتهر بـ

(أوس بن غلفاء الهجيميّ) وغلفاء هو ربيع بن أوس بن ربيعة بن هجيم الشاعر في الجاهلية [٢] ثم يذكر ما دار بينه وبين يزيد بن الصعق حين قال في تميم شعراً فيه:

ألا أبلـــــغْ لديك بني تميم بآيةِ ما يُحبّونَ الطّعــاما

فردّ عليه شعراً فيه:

فإنّك من هجـــاءِ بني تميمٍ كمُزْدادِ الغرامِ إلى الغرامِ [٣]

ويقف بعدها عند بيتين للشاعر يذكر فيها إسمه وبعض المواضع والأمكنة التي لا تعطي أي إنطباع عن مكان الشاعر، أو بيئته الأولى التي ترعرع فيها، إذ يقول فيها:

ألا قالتْ أمامةُ يوم غـــوْلٍ تُقطَّعُ يا ابنَ غلفاءَ الحبالُ [٤]

ذَريني إنّما خَطأي وَصوْبي عليَّ، وإنَّ ما أنفقتُ مـــالُ

ويعقب عليها ابن قتيبة بالقول: **(أنّه يريد: إنّ ما أنفقت مالٌ والمال يستخلفُ ولم أتلف عِرضاً، وبعض أصحاب الإعراب يرى أنه أراد: إنّما أنفقتُ مالي فرفع ويحتاج لذلك بما ليس فيه حُجّةٌ)**[٥]

ولم تزد المصادر الأخرى على هذا الذي قاله ابن قتيبة سوى أن بعضها أردفت ذلك بقصيدة الشاعر [٦] وأغلبها اكتفت بذكر القصيدة فقط [٧]

ولعل الركض وراء التاريخ غالباً ما يكون محكوماً بالإشارات والتخمين؛ لأنّ الباحث وسط هذا التعتيم قد لا يستطيع تحديد الحقبة الزمنية التي عاش فيها الشاعر تحديداً دقيقاً، وما يؤكد ذلك أن الباحثين قديماً لم يحددوا أزماناً أو تواريخ معينة لولادة الشعراء أو وفياتهم بالرغم من تقارب العصر حيناً، أو المعاصرة حيناً آخر. لأسباب كثيرة منها غياب التدوين، وعدم العناية بهذه المناسبات الاجتماعية بالقياس على عنايتهم بأيامهم وغزواتهم المتبادلة. وأغلب الظن أن الشاعر أوس بن غلفاء عاش في عصر قريب من زمن أوس بن حجر أو ربما سبقه بقليل؛ لأنّ أغلب

النقاد يخلطون بين الأوسين فينسبون شعر أحدهما للآخر، ولعل شهرة أوس بن حجر قد طغت على شعر أوس بن غلفاء، وهو ما سنراه في أثناء الحديث عن يوم ذي نجب وفي تحليل القصيدة.

- **شهرتُهُ**

تعدّ أيام العرب في الجاهلية مصدراً خصباً من مصادر التاريخ العربي قبل الإسلام، ورافداً حياً من روافد الأدب العربي، إذ تعدّ تلك الأيام مستودع شعر العرب في تلك الحقبة المبكرة التي أرّخت للبدايات الأولى لذلك الشعر، فقد أسهمت تلك الأيام، بحكم ذيوعها وسريانها بين الناس، في شهرة كثير من الشعراء، حتى صار شعرهم مضرباً للأمثال، ترويه الرواة، وتتناقله الألسنة كالأمثال السائرة، وربما لم يقف الأمر عند الشعراء فحسب، بل إن تلك الأيام أسهمت في شهرة كثير من الناس، إما لمشاركتهم فيها، أو لارتباطهم بأحداثها، وأغلب الظن أن شاعرنا أوس بن غلفاء لم يكتسب هذه الشهرة، التي دفعت بعض القدماء إلى تدوين قصيدته الميمية، إلا بسبب مشاركته في يوم شهير من أيام العرب في الجاهلية وهو يوم ذي نجب، وهو ما سنسلط الضوء عليه في الفقرة اللاحقة، لنتبين مكان الشاعر منه، وموقفه فيه.

- **يوم ذي نجب** (٨)

لمّا انقضى يوم جبلة ومرّ عام عليه، خرج ناس من بني عامر بن صعصعة إلى حسان بن كبشة (٩) ومنهم عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة (١٠) ويزيد بن الصعق (١١) واستنجدوه على بني حنظلة (١٢) ابن مالك، وقالوا: هل لك في إبل عكر (١٣) ونساء كالبقر، وتسير مُبرداً (١٤) وترجع سالماً غانماً من قوم قد أوقعنا بهم حديثاً، وقتلنا فرسانهم ورؤساءهم !

فقيل أنه نزل عند رغبتهم، ومر على بني عامر، فسار معه نفر منهم، فلما بلغ خبر مسيرهم إلى بني حنظلة قال عمرو بن عمرو بن عُدُس، وكان شيخاً كبيراً أبرص: **(يا بني مالك إنه لا**

طاقة لكم بهذا الملك ومن معه، فخفّوا من مكانكم هذا ودعوا بني يربوع فإنهم حي مصرم نكد (١٥) **فإن ظهر الملك عليهم سالمتم، فبقية السلم خير من بقية الحرب، وإن ظهرت يربوع عليهم كنتم مع أخوتكم)** (١٦) ففعلوا.

ولمّا أسفرت الوقعة عن قتل الملك حسان وفرار أصحابه، أسر ثعلبة بن الحارث اليربوعي يزيد بن الصعق، فأبصره في يده ثعلبة بن الحارث بن عمرو، فضربه على رأسه فأمّه، وإنهزم طفيل بن مالك، وضرب زنباع بن الحارث، وهو أحد بني رياح، عبيدة بن مالك على هامته فمات في يده، فقال سحيم بن وثيل الرياحي في ذلك:

ونحنُ ضربنا هامةَ ابن خُويلد يزيد وضرّجنا عبيدةَ بالدمِ

بذي نجبٍ إذ نحن دون حريمنا على كلّ جيّاش الأجاريّ مرجم (١٧)

وقتل خالد بن مالك النهشلي، رئيس بني عامر، عمرو بن الأحوص، وقد كان بعض أصحابه قال له: يا خالد، أقتل بأبيك (١٨) وإنهزمت بنو عامر وصنائع ابن كبشة، فقال أوس بن حجر:

كان بنو الأبرص أقرانكم فأدركوا الأحدثَ والأقدَمَا (١٩)

إذ قالَ عمرو لبني مالكٍ لا تُعجلوا المرّة أن تحكما

والله لولا قُرزلَ إذ نجا لكان مثوى خدّك الأخرما (٢٠)

نجّاك جيّاشٌ هزيم كما أحميتَ وسطَ الوَبرَ الميسما (٢١)

- القصيدة

قال أوس بنُ غَلْفاءَ الهُجَيميُّ:

جَلَبْنا الخيلَ من جَنْبَيْ أريكٍ إلى أَجَلَى إلى ضِلَعِ الرِّجام

بِكلّ مُنَفّقِ الجُرذانِ مَجرٍ شَديدِ الأسرِ للأعداءِ حامِ

أَصَبنا مَنْ أَصبنا ثُمّ فِئنا على أهلِ الشُّرَيفِ إلى شَمامِ

وَجَدنا منْ يقودُ يَــزيدُ مِنــهم ضِعافَ الأمرِ غيرَ ذوي نِظَام
فأجْرِ يزيدُ مَذمــوماً أو انزع عَلى عَـلْبٍ بأنفِكَ كالخِطـامِ
كأنّكَ عَيْرُ سـالئةٍ ضَـــروطٍ كَثيرُ الجَــهلِ شَتّــامُ الكِرامِ
وإنَّ النّاسَ قد عَلموكَ شيــخاً تُهَوّكُ بالنــّواكةِ كلَّ عــامِ
وإنّكَ مِـنْ هِــجاءِ بَنـيْ تَميـمٍ كَـزُدادِ الَغرامِ إلى الغَــرَامِ
هُمُ مَنّــوا عَليكَ فَــلمْ تُــثِبــهُم فتيلاً غَيرَ شَتمٍ أو خصــام
وهُم تَركوكَ أَسلحَ مِن حُبــارى رَأتْ صقراً وأَشردَ من نَعَامِ
وَهُم ضَربوكَ ذاتَ الرأسِ حتّى بَدتْ أُمُّ الدّمــاغِ من العِظامِ
إذا يَأسُونَها نَشــزتْ عَليــهم شَــرَنْبَثةُ الأصــابعِ أُمُّ هــامِ
منَّ عَليكَ أَنّ الجِــــلدَ وارى غَثيثَتَــها وإحــرامُ الطّعـامِ
وهُم أدَّوا إليكَ بَنــيْ عِــداءٍ بأفــوقَ ناصـلٍ وَبشــرّ ذامِ
وَحيّــي جَعفَــرٍ والحَيَّ كعباً وَحيّ بَني الوحيـدِ بَلَا سَوَامِ
فإنّا لَمْ يــكُنْ ضَبَّــــاءُ فينا ولا ثَقفٌ ولا ابنُ أبي عِصامِ
ولا فضحُ الفُضــوحِ ولا شُيَيْمٌ ولا سُلْمــاكُمُ، صَمّي صَمَامِ
قَتلْتُمْ جــارَكُم وَقَــذفتــمُوهُ بأُمّــكُمُ، فَمــا ذَنبُ الغُـلامِ
ألا مَــنْ مُبلغُ الجَرميُّ عَنّــي وخيرُ القولِ صــادِقةُ الكِلامِ
فَهَلّا إذْ رأيــتَ أبــــا مُعاذٍ وَعُلبةَ كُنتَ فيــها ذا إنتقامِ
أَرَاهُ مَجــامعَ الوَركينِ مِنـها مَكــانَ السَّرجِ أُثبِتَ بالحِزَامِ (٢٢)

- **تحليل القصيدة**

مما لا شكّ فيه أنّ الذي يبحث في شعر أوس بن غلفاء سيقف أمام عقبة معنوية تتمثل في تفاوت الروايات التي ذكرت هذه القصيدة، كما مر بنا سابقاً، لكن على الرغم من ذلك، فإن إبن سلام الجمحي (٢٣١هـ) ألحق الشاعر بالطبقة الثامنة من الشعراء الجاهليين جنباً إلى جنب مع عمرو بن قميئة والنمر بن تولب وعوف بن عطية، من دون أن يعرض للقصيدة كاملة، على النحو الذي ذكره المفضل الضبي، إذ ذكر منها أربعة أبيات فقط [٢٣]

ولعل ذلك راجع، في بعض أسبابه، إلى أن القصيدة جاءت في غرض الهجاء، وهو ما لا يلائم معايير ابن سلّام الأخلاقية، يدلّ على ذلك طبيعة الأبيات التي اختارها من القصيدة.

إذا وقفنا عند القصيدة التي تتألف من واحد وعشرين بيتاً، فإننا نجد الشاعر يبدأ- على الرغم من أنه كان بصدد الهجاء- بذكر المواضع والأمكنة المعروفة وقتذاك، وهذا من ركائز البنية التقليدية للقصيدة الجاهلية، لكنه لم يلبث عند تلك الأمكنة بوصفها أطلالاً؛ لأن الأسلوب المباشر الذي يمليه غرض الهجاء لا يتيح للشاعر فسحة مناسبة لاسترجاع ذكرياته الماضية، أو أيامه الخوالي، أو يكشف عن تعلقه بتلك الأمكنة أو انشداده إليها، فالمقام مقام معركة، والحال يستوجب من الشاعر أن ينفذ إلى غرضه بصورة مباشرة، ولعل إلمام الشاعر بتلك المواضع في مستهل قصيدته كان بقصد إثارة عزيمة قومه، وبث الحماسة فيهم، فهم جلبوا الخيل من ثلاثة مواضع هي: (أريك، أجلى، الرجام).

يحكي لنا صاحب المفضليات عن جو هذه القصيدة، ويقول: كان يزيد بن صعق الكلابي، وهو يزيد بن عمرو بن خويلد بن نفيل بن عمرو بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة هجا بني تميم بأشعار منها:

إذا ما ماتَ ميتٌ من تميمٍ فسرّكَ أن يعيشَ فجيء بزادِ [٢٤]

فكان أن ردّ عليه أوس بهذه القصيدة وهو يذكره بوقعة يوم ذي نجب، التي مرّ ذكرها، فوصف جيش قومه العظيم، وتحدث عن المواضع التي سلكها هذا الجيش، قبل أن يلتقي الجيش الذي فيه يزيد، وهو جيش ضعيف القوام، سيئ التنظيم، فبان خواء هذا الجيش وضعفه، حين فرّ جنوده من المعركة، كما تفر الجرذان من نفقها وهذا ما عبّر عنه الضبي حين وصف الجيش بالمهابة والعظمة، حتى أن الجرذان حين تسمع وقع الخيل على الأرض، تظنه سيلاً قادماً فتخرج هوارب منه، وهذا المعنى كما يرى الضبي شبيه بقول إمرئ القيس:

ترى الفأرَ في مُستنقعِ القاعِ لاحباً　　على جددِ الصّحراءِ من شدّ مُلهبِ

خَفــــــاهُنَّ من أَنفاقِـهنَّ كأَنمــا　　خَفــاهُنَّ وَدقٌ من عشيٍّ مُجــلّبِ (٢٥)

وإمعاناً منه في تصوير خواء جيش الأعداء وصفه بالمجر، يعني: أظهرهن وأبرزهن يصف سيلاً، والشاة المجرة هي: الشاة المهزولة الحامل المثقل، فمشيها ضعيف، وربما سقطت فحملت، أما الأسر فهو هنا الشدّ، ومنه سمي الأسير أسيراً؛ لأنه يشدّ بالقيد.

ولمّا أصابوا ما أصابوا من عدوهم فاءوا أي: رجعوا إلى أنفسهم وإلى موضعهم، وهو ما عبّر عنه بالشريف وهو إسم لموضع، وشمام وهو إسم لجبل، فتفكروا في شأن عدوهم، فوجدوا أنهم ضعفاء لا يقوون على مواجهتهم فإن واجهوهم نزعوا الجلد عن عظامهم، وهو ما عبّر عنه الشاعر في البيت الخامس بالعلب وهي الحديدة يقشر بها الأنف حتى يبدو العظم، وكأنه ينصحهم بأن يعودوا إلى رشدهم، ولا يستعدونهم، وثمة مثل عند العرب قديماً يقول: إذا لم تعلب فاخلب، أي إذا لم تقو على عدوك فتؤثر فيه، فاختدعه.

ولمّا كان غرض القصيدة هو الهجاء فإن الشاعر سيظل يمعن في سلب الصفات الإيجابية عن مهجوه، مضفياً عليه صفات سلبية تثير الشفقة والهزء عند سماعها فهو على الرغم من تقدمه في السن، وهو شيخ كبير، يفترض أن الأيام صقلت عوده، وزادته حنكة ودراية، فانّه متحيّر لا

يلوي على شيئ كمن سقط في هوة الردى، وما قاده إلى ذلك هو حمقه، وإفتقاره إلى النصح من أبناء قومه. الذين أقحموه فيما لا طاقة لهم به، ولا قبل لهم عليه. وهذا ما دلّ عليه البيتان السابع والثامن من القصيدة، إذ تركزا على معاني التردد والتحيّر والسقوط في الردى والشر الدائم. فالخطاب في القصيدة ليس إلى يزيد وحده، وهو ما قد يبدو للوهلة الأولى من كاف الخطاب المطردة في القصيدة كلها، لكنه خطاب الجميع بصيغة الواحد، وهو ما دلّ عليه البيت التاسع من القصيدة فهو مهما تجرأ على هجاء بني تميم، وهم قوم الشاعر، وأمعن في هجائهم، فإن هذا الهجاء لن يحط من قدرهم، أو يسقطهم في أعين الناس، لأنهم منّوا عليك، وعلى أبناء قومك من قبل، لكن ذلك شأن كل منكر جاحد لن يزيده السب والشتم إلا صغاراً في أعين الناس. وهو صغير من قبل حين تركته بنو تميم (أسلح من حبارى) والحبارى طير بريّ يدعى دجاجة البر، لفرط جبنه وضعفه يسلح كلما شعر بالخوف والهلع، لا سيما إذا رأى صقراً، فهو أشرد من نعامة، وهو مثل عند العرب يضرب في شدة الجبن والضعف.

وإمعاناً في حكاية الحال الماضية، وسرد بطولات بني تميم، يذكّر الشاعر مهجوه بما صنعوه بهم في يوم ذي نجب حين شجوا رأس كبيرهم حتى بدت أم الدماغ وهي الجلدة التي تحيط بالدماغ وتحميه، وعبثاً حاولوا علاجها؛ لأنها عصية على الدواء والعلاج، فكلما طلبوا علاجاً لها تبدت لهم هاماً عظيمة غليظة الأصابع يهول منظرها، وتلك حكاية لأسطورة قديمة عند العرب، تقول: أن القتيل إذا خرّ صريعاً يخرج من رأسه طير يسمّى هامة وهي مفرد لـ (هام) الواردة في البيت الثاني عشر من القصيدة، لكن الشاعر بالغ في تهويل صورة ذلك الطائر حين أضاف إليه (أم) مبالغة في تصوير حجمه وضخامته.

لكن، ولحسن الحظ، وارى الجلد ما فسد من دماغه، فمنع عنه الطعام، لأن العرب كانت تمنع الشراب عن الجريح الذي يرتجى شفاؤه وسلامته، لئلا ينتقض هذا الماء أو الشراب جراحه فيلقى حتفه.

وبينما يذكر الشاعر مهجوه بما جرى بينهم حين أصابهم بنو عداء وهم بنو أسد حتى أن السهام أصابتهم بمقتل، وهو ما عبر عنه بقوله: (بأفوق ناصلٍ) والأفوق هو سهم ذهب فوقه، وهو موضع الوتر من السهم، والناصل هو السيف إذا ذهب نصله. وفي ذلك كناية واضحة عن بطشهم وفتكهم في أعدائهم.

وفي الأبيات الأخيرة من القصيدة يذكر الشاعر أسماء بعض الأعلام من قبيلة المهجو ممن لقوا حتفهم، ومن هؤلاء رجل يقال له: ضباء وهو من بني أسد وكان جاراً لبني جعفر، قتلته بنو كلاب غدراً، فلم يدرك بنو جعفر بثأره ولم يدوا ديته وكأنّه يتهكم عليهم، ويعيّرهم بما كان منهم، أي أنني، والكلام للشاعر، لست ممن تذهب دماؤهم هدراً. وهو يذكرنا بقول بشر بن أبي خازم حين هجا عتبة وبنو جعفر؛ لأنهم لم يدركوا ثأر ضباء، على الرغم من أنّه قُتل في جوار عتبة، إذ يقول:

فمنْ يكُ منْ جارِ ابن ضبّاءَ ساخِراً فقدْ كانَ في جارِ ابن ضبّاءَ مُسخرُ(٢٦)

ويمضي الشاعر على هذا النحو في البيت السابع عشر والثامن عشر، إذ يكرر التذكير ببعض الأعلام ويعيره بدمائهم، وتلك من الدواهي التي يبتلى بها أي قوم وهو ما تحيل إليه لفظة (الصميّ الصمّام) وهي مثل (قطام) تقال للداهية. وقد مرّ هذا المعنى عند إمرئ القيس من قبل حين قال:

بُدّلتُ منْ وائلٍ وكِندةَ عَــد وانَ وفهْماً صَمّي ابنةَ الجبلِ

قومٌ يحاحونَ بالبهامِ ونسـ وانٌ قِصارٌ كهيئةِ الحـــجلِ (٢٧)

والشاعر أوس بن غلفاء يضربه مثلاً للرجل الذليل التابع للناس، الذي إذا تكلم رجل صدقه، وإذا قال قولاً اتبعه، كما أن الهامة لا تجيبك حتى تصيح فإذا صحت أجابك الصوت، فيقال لها إنما تجيبنا إذا تكلم إنسان !

ويختم الشاعر قصيدته بطريقة أقل حدة مما بدأت به، يدل على ذلك إستعماله ضمير الغائب في البيت الأخير، ليخالف ما جرى عليه في القصيدة كلها إبتداء من مطلعها، من إستعمال كاف الخطاب، أو ضمير الجماعة، إذ جاءت مجامع الوركين مفعول ثان للفعل (أراه)، فيشير به إلى عجز الفرس، والمعنى أنه أسره ثم ارتدفه، أي أركبه خلفه.

ويبدو أن المساحة التي تركها وزن الوافر للشاعر أتاحت له هذه الحرية الواسعة في التعبير عن إنفعالاته، وردة فعله. وهي ليست قاعدة مطردة كما يزعم عبد الله الطيب، إذ يرى أن وزن الوافر (أحسن ما يصلح في الاستعطاف والبكائيات وإظهار الغضب في معرض الهجاء والفخر) [٢٨] ولكن ربما لأنّه، أعني وزن الوافر، سهل القياد، يتلاءم مع كثير من الأغراض الشعرية. وينسجم مع طبيعة الإنفعال الذي استهل به الشاعر قصيدته.

- **الخاتمة**

نخلص مما تقدّم في هذا البحث الموجز أن أوس بن غلفاء شاعر جاهلي ارتبطت سيرته بيوم معروف من أيام العرب في الجاهلية وهو يوم ذي نجب، ولا عجب في ذلك، فقد كانت أيام العرب في الجاهلية، وما زالت، مصدراً ثرّاً من مصادر الشعر العربي. في حقبة ستظل من أزهى عصور الأدب العربي، وأوثقها صلة بطرائق العرب، وسننهم في الشعر.

وفي الوقت الذي أصاب تلك الأيام بعض الإضطراب والتشويش نظراً لغياب وسائل التدوين المناسبة، فقد تسرب هذا الأمر لحياة كثير من الشعراء المقلين، فجاءت أخبارهم متفاوتة يشوبها الكثير من التحريف والضبابية، ولم تقطع المصادر المتقدمة بنسبة الأشعار إليهم. وهو ما ينطبق

إلى حد كبير على الشاعر أوس بن غلفاء، إذ سكتت المصادر عن التعريف به وبسيرته، واكتفت بذكر ما جرى بينه وبين يزيد بن الصعق الكلابي، وهو غريم الشاعر في يوم ذي نجب. ولعلّ الإشارة الواضحة، غير المكتملة عن الشاعر، وردت في كتاب الشعراء والشعراء لابن قتيبة لكنه لم يردفها بالقصيدة التي ذكرها صاحب المفضليات، وهي المصدر الوحيد الذي ذكر القصيدة كاملة بواحد وعشرين بيتاً.

وسوى ذلك، سيصطدم الباحث بعقبة معنوية تتمثل في تفاوت الروايات التي ذكرت هذه القصيدة، كما مر بنا سابقاً، لكن على الرغم من ذلك، فإن إبن سلام الجمحي ألحق الشاعر بالطبقة الثامنة من الشعراء الجاهليين جنباً إلى جنب مع عمرو بن قميئة والنمر بن تولب وعوف بن عطية، من دون أن يعرض للقصيدة كاملة، على النحو الذي ذكره المفضل الضبي، إذ ذكر منها أربعة أبيات فقط، ولعل ذلك راجع، في بعض أسبابه، إلى أن القصيدة جاءت في غرض الهجاء، وهو ما لا يلائم معايير ابن سلّام الأخلاقية، يدلّ على ذلك طبيعة الأبيات التي اختارها من القصيدة.

ولعل القصيدة المكتملة التي ذكرها صاحب المفضليات تعطينا إنطباعاً محدداَ وهي أنها من القصائد ذوات الموضوع الواحد، إذ تدور القصيدة حول غرض الهجاء الذي يتلبس بالفخر القبلي. وهو ما ينسجم مع مناسبة القصيدة وجوّها العام. فقد تردد الشاعر بين أسلوبين من الخطاب يشيعان في الهجاء والفخر القبلي وهما الخطاب بصيغة الواحد أو الجماعة، فضلاً عن شيوع ضمير الجماعة فيها. إذا ما أستثنينا خاتمة القصيدة التي عدل فيها الشاعر إلى ضمير الغائب في لفتة تؤكد أن هذا البيت هو بالفعل خاتمة هذه القصيدة. وهي واحدة شاعرها.

- **الهوامش:**

(١) ينظر: المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف بمصر، ط٦، د.ت: ٣٨٧

(٢) ينظر: الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣: ٢/ ٦٢١

(٣) ينظر: المصدر نفسه والصفحة، وليس الغرام في هذا البيت من الحب أو الوجد، كما قد يظن، ولكنه الشر الدائم، وقد ذكر هذا البيت في المفضليات في المفضلية: ١١٨ وفي لسان العرب، لابن منظور(٧١١هـ) دار صادر، بيروت، د.ت: ٢٣١/١١ مع بيت آخر.

(٤) غَول: هو موضع كانت فيه وقعة لضبة على بني كلاب، وقيل: هو واد فيه نخل وعيون، وقال الأصمعي: أن غول جبل للضباب حذاء ماء فيسمى الجبل: هضب غول. والبيت في معجم البلدان، ياقوت الحموي (٦٢٦هـ)، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧: ٦: ٣١٦

(٥) الشعر والشعراء: ٢/ ٦٢١

(٦) ينظر: الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني(٣٥٦هـ) تحقيق: إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠٨: ١٥٢/٧، وخزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي (٨٣٧هـ)، تحقيق: كوكب دياب، دار صادر بيروت، ط٢، ٢٠٠٥: ١٣٨/٣-١٤٤، ٥١٥

(٧) ينظر: على سبيل المثال: الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٤٥: ٤٤٨/٥ والكامل في اللغة والأدب، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد(٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، ١٩٩٧: ٤٨٦/١

(٨) قيل أن النجب جمع مفرده نجبة وهو قشور الشجر، ولا يقال لما لانَ من قشور الأغصان نجب، وقيل هو إسم لموضع شهد وقعة لبني تميم على عامر بن صعصعة، وكان هذا اليوم بعد مرور عام على يوم جبلة. ينظر: معجم البلدان: ٢٥٢/٨

(٩) هو حسان بن معاوية بن حجر كان ملكاً من ملوك اليمن

(١٠) هو عامر بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة العامري الكلابي وهو ملاعب الأسنة وهو عم عامر بن الطفيل والشاعر لبيد بن ربيعة العامريان، يضرب به المثل في الشجاعة، وكان إذا ركب فرسه وصل إبهاما قدميه إلى الأرض لطوله! ينظر: الأغاني: ٥٠/١٥، ١٣١ وبلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، محمود شكري الالوسي، تحقيق: محمد بهجة الأثري، دار الكتاب المصري، د.ت: ١٢٩/٢

(١١) هو يزيد بن قيس بن يزيد بن الصعق، وهو لقب، واسمه عمرو بن كلاب بن ربيعة الكلابي، وقيل أن الصعق لقب خويلد. ينظر: معجم الشعراء، أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني (٣٨٤هـ)، تحقيق: فاروق اسليم، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠٥: ٥٦٠

(١٢) بنو حنظلة: حي في تميم

(١٣) العكر: ما زاد على الخمسمائة من الإبل

(١٤) يقال: أبرد: إذا دخل في آخر النهار.

(١٥) نكد الرجل فهو منكود: إذا كثر سؤاله، وقلّ خيره، ورجل نكد: أي عسر.

(١٦) ينظر: المحبر، محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو (٢٤٥هـ) تحقيق: ايليزة ليختن شتيتر، دار الآفاق الجديدة، بيروت: ٤٢٦

(١٧) الأجاري: ضروب من السير، والمرجم: الشديد. ينظر: شرح لزوم ما لا يلزم لأبي العلاء المعري، لأحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي (٤٤٩هـ) تأليف: الدكتور طه حسين وإبراهيم الأبياري، دار المعارف بمصر، د.ت: ٦٩/١

(١٨) كان عمرو بن الأحوص قتل أبا خالد يوم جبلة .

(١٩) بنو الأبرص: بنو يربوع بن حنظلة.

(٢٠) القرزل: فرس طفيل بن مالك بن جعفر الذي فرّ به من بني يربوع، والأخرم: الجبل، وهو منقطع أنفه وهو يريد: لثوى خدك في الأرض.

(٢١) الجياش: الشديد الجري السريع كأنه مشتق من القدر إذا جاشت بالغلي والهزيم كذلك، يقول: يجيش ويهزم يعني يصوت صوتاً كغلي المرجل، وكما أحميت: يعني السرعة، يقول: هذا العدو يلتهب في عدوه كما يلتهب الميسم وهي الحديدة تحمى بالنار حتى تصير كالجمرة ثم توضع على جلد البعير علامة، والأصمعي يقول: إنه سريع الجري، فسرعة هذا الفرس كسرعة ممر هذا الميسم في جلد البعير ووبره. ديوان أوس بن حجر، تحقيق وشرح: محمد يوسف نجم، دار صادر بيروت، ط٣، ١٩٧٩: ١١٣

(٢٢) المفضليات: ٣٨٧-٣٨٩، المفضلية: ١١٨، والأبيات (٨، ١٠، ١١) نسبها ابن دريد في الجمهرة إلى دجاجة بن عتر، وزعم محققا الكتاب أنه خطأ، لكنهما لم يذكرا السبب ! ينظر: جمهرة اللغة، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (٣٢١هـ)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت د.ت: ٢٤٣/٢ وينظر: المفضليات: الهامش: ٢٨٧، علماً أن بعض الأبيات وردت متفرقة في بعض المصادر ومنها: مجمع الأمثال، لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني (٥١٨هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة،١٩٥٥: ٣٤٠/١

(٢٣) ينظر: طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلّام الجمحي، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، ١٩٧٤: ١٦٨/١

(٢٤) البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، د.ت: ٣/١، ١٩٠/٣٢١. والحيوان: ٦٦/٤-٦٧ ومعجم الشعراء للمرزباني: ٤٩٤

(٢٥) ديوان إمرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ط٥، ١٩٩٠: ٥١

(٢٦) ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي، تحقيق: الدكتور عزة حسن، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، ١٩٦٠: ٨٥

(٢٧) ديوان إمرئ القيس: ٣٤٨، ويقصد بأبنة الجبل: الحصاة، وهذا من قولهم للأمر إذا أشتد صمت حصاة بدم، كناية عن كثرة الدماء، حتى إذا وقعت فيها الدماء لم يسمع صوتها، ويحاحون: يدعون.

(٢٨) ينظر: المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، عبد الله الطيب المجذوب، مطبعة حكومة الكويت، ط٢، ١٩٨٩: ٤٠٧/١

- **المصادر والمراجع**

- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (٣٥٦هـ) تحقيق: إحسان عباس وإبراهيم السعافين وبكر عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠٨
- أيام العرب في الجاهلية، محمد أحمد جاد المولى ومحمد علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ط١ ١٩٤٢

- بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، محمود شكري الآلوسي، تحقيق: محمد بهجة الأثري، دار الكتاب المصري، د.ت
- البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، بيروت، د.ت
- جمهرة اللغة، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (٣٢١هـ) تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت د.ت
- الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٤٥
- خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي (٨٣٧هـ)، تحقيق: كوكب دياب، دار صادر بيروت، ط٢، ٢٠٠٥
- ديوان إمرئ القيس، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ط٥، ١٩٩٠
- ديوان أوس بن حجر، تحقيق وشرح: محمد يوسف نجم، دار صادر بيروت، ط٣، ١٩٧٩
- ديوان بشر بن أبي خازم الأسدي، تحقيق: الدكتور عزة حسن، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، دمشق، ١٩٦٠
- شرح لزوم ما لا يلزم لأبي العلاء المعري، لأحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي (٤٤٩هـ) تأليف: الدكتور طه حسين وإبراهيم الأبياري، دار المعارف بمصر، د.ت
- الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري (٢٧٦هـ)، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣
- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلّام الجمحي (٢٣١هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني بجدة، ١٩٧٤

- الكامل في اللغة والأدب، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد(٢٨٥هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، ١٩٩٧
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (٧١١هـ) دار صادر، بيروت، د.ت
- مجمع الأمثال، لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني(٥١٨هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة،١٩٥٥
- المحبر، محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو (٢٤٥هـ) تحقيق: ايليزة ليختن شتيتر، دار الآفاق الجديدة، بيروت
- المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، عبد الله الطيب المجذوب، مطبعة حكومة الكويت، ط٢، ١٩٨٩
- معجم البلدان، ياقوت الحموي (٦٢٦هـ)، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧
- معجم الشعراء، أبو عبيد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني(٣٨٤هـ)، تحقيق: فاروق اسليم، دار صادر، بيروت، ط١ ٢٠٠٥
- المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون دار المعارف بمصر، ط٦، د.ت